لماذا الحج؟

السؤال: لماذا نحج؟

الجواب: أولاً: نحج لأن اللَّه أمر به، وجعله ركناً من أركان الإسلام على المستطيعين له، ثم أسوة برسول اللَّه ﷺ الذي حج وقال: «خذوا عني مناسككم»[1].

حين سن اللَّه الاعتكاف لرسوله ﷺ أن يأخذنا في آخر رمضان إلى اعتكاف في المسجد تاركين الأهل والأولاد والأموال والأعمال فإنه ارتقاء للتصعيد التكليفي، لأن إلف المكان وإلف السكان وإلف الأهل يعمل في النفس البشرية بعض العوائق عن اللَّه، فيخرجنا هذا المخرج لنجرب الصفاء الذي يتأتى لنا ونتعود أن نترك الأهل بعض الوقت لأنه يريد أن يعدّنا لرحلة أخرى هذه الرحلة تعتبر الركن الخامس من أركان الإسلام لأنه بعد وقت معين سنترك كل شيء، ونذهب إلى الحج فنُعْطى شيئاً من إلف الترك للأهل والمال والبيت. فعندما يذهب الإنسان للحج يكون قد استكمل أركان إسلامه، ويصبح البيت الذي يتجه إليه بقلبٍ يؤمن به عن يقين، أصبح يراه عين اليقين فيرى بيت ربه الذي كان يتجه إليه ثم يطوف به ويؤدي المناسك فيعيش بعد علم اليقين ببيت اللَّه في حقيقة اليقين ببيت اللَّه، حينئذ يكتمل إيمانه فالأركان والأسس التي يبنى عليها الإسلام قد تمت له، وبقي أن يكمل بنية الإسلام لأن الأركان ثابتة وبنية الإسلام التي توضع على هذه الأركان هي كل حركة في الحياة.

❁❁❁

(١) رواه البيهقي في الكبرى [٩٣٠٧] عن جابر رضي اللَّه تعالى عنه.

ثواب الحج المبرور

السؤال: ما ثواب الحج المبرور؟

الجواب: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنَّة»[١].

فعندما يتوجه الإنسان لأداء فريضة الحج، فإنه يترك بيته وأهله وماله متوجهاً إلى بيت اللَّه الحرام، ملبياً دعوة اللَّه، وترى الحاج حين يحرم ويحج لا يخطر بباله شيء من أمور الدنيا، فإذا ما انتهى من أعمال الحج، تشوق إلى أهله ووطنه، وتلك حكمة أخرى؛ لأنه لو لم يتشوق للعودة إلى الأهل والوطن، لضاق المكان بالمحبين.

وكون الحاج يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، هذا يعني الذنوب التي بينه وبين ربه، أما الذنوب التي بينه وبين العباد، فلا بد أن تؤدى قبل الحج، ولذلك نجد من دقة التكليف أن المدين لا يصح أن يحج إلا إذا استأذن صاحب الدين، أو كفيله، فإن كان عنده وفاء للدين في بلده وفَّى به، وإن لم يكن عنده وفاء أوصى بالوفاء من تركته.

ولا يصح أن نقول: إن الجزاء أكبر من العمل؛ لأن تناسب الصفقات لا يجوز أن يلاحظ إلا بين المتساويين، يعني إلا إن كانت الصفقة معقودة بين متساويين، إنما حين نقيس الصفقة المعقودة بين اللَّه سبحانه وتعالى وبين عباده، فلا يصح أن نقول: الجزاء أكبر من العمل؛ لأن اللَّه هو الذي حدد العمل، وحدد الجزاء.

ولنفرض أن إنساناً زرع ورداً جميلاً، ثم قدم وردة للملك، فأعطاه ألف دينار، هل نقول: إن الملك أعطاه أكثر من ثمن الوردة؟ لا نقول هذا.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أحمد في المسند [٢/ ٢٤٦] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

الطواف حول بيت اللَّه

السؤال: المستشرقون وأعداء الإسلام يقولون: إن الإسلام حرَّم الوثنية، وبالرغم من ذلك فالمسلمون أنفسهم يطوفون حول الكعبة، فكيف يمكن الرد عليهم؟

الجواب: إذا كان المرجفون في دين اللَّه والمحجوبون عن فقه التكاليف فضلاً عن أسرارها ـ يتشدقون بأن الإسلام قد أبقى على مظاهر الوثنية حين أمر بتعظيم البيت طوافاً حوله، وحين كلف بتعظيم الحجر استلاماً له: إذا كان ذلك ـ فإن هؤلاء وهؤلاء يهرفون بما لا يعرفون ويغارون غيرة دعائية على الإخلاص لعبادة إله لم يؤمنوا به ولم يفقهوا عنه، ولقد فرق الفاروق عمر بن الخطّاب رضي اللَّه عنه بين حق من اللَّه وباطل من أعدائه، فقال مخاطباً الحجر: «أني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول اللَّه يقبلك ما قبلتك»[(١)]. وبهذا أعلن رضي اللَّه

(١) روى البخاري [١٥٩٧] ومسلم [١٢٧٠/٤٨] عن عمر رضي اللَّه تعالى عنه: أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، فقال: إني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك.

قال الحافظ في الفتح: قوله: «لا تضر ولا تنفع» أي: إلا بإذن اللَّه، وقد روى الحاكم من حديث أبي سعيد أن عمر لما قال هذا قال له علي بن أبي طالب: إنه يضر وينفع، وذكر أن اللَّه لما أخذ المواثيق على ولد آدم كتب ذلك في رق وألقمه الحجر، قال: وقد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن استلمه بالتوحيد» وفي إسناده أبو هارون العبدي وهو ضعيف جداً.

وقد روى النسائي من وجه آخر ما يشعر بأن عمر رفع قوله ذلك إلى النبي ﷺ أخرجه من طريق طاووس عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: «رأيت عمر قبل الحجر ثلاثاً ثم قال: إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول اللَّه ﷺ قبلك ما قبلتك» ثم قال: «رأيت رسول اللَّه ﷺ فعل مثل ذلك».

قال الطبري: إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول اللَّه ﷺ، لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان. =

تعالى عنه فصل الخطاب وأبان وجه التكليف بلا إسراف ودون تزييف، وكأني بعمر رضي اللَّه تعالى عنه ينفي عن الحجر أن ينفع بذاته وهذا لا يمنع أن يشهد الحجر لمن استلمه عند من يملك وحده النفع والضر.

= وقال المهلب: حديث عمر هذا يرد على من قال: إن الحجر يمين اللَّه في الأرض يصافح بها عباده، ومعاذ اللَّه أن يكون للَّه جارحة، وإنما شرع تقبيله اختياراً ليعلم بالمشاهدة طاعة من يطيع وذلك شبيه بقصة إبليس حيث أمر بالسجود لآدم.

وقال الخطابي: معنى أنه يمين اللَّه في الأرض أن من صافحه في الأرض كان له عند اللَّه عهد، وجرت العادة بأن العهد يعقده الملك بالمصافحة لمن يريد موالاته والاختصاص به فخاطبهم بما يعهدونه.

وقال المحب الطبري: معناه أن كل ملك إذا قدم عليه الوافد قبل يمينه، فلما كان الحاج أول ما يقدم يسن له تقبيله نزل منزلة يمين الملك وللَّه المثل الأعلى.

وفي قول عمر هذا: التسليم للشارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله، ولو لم يعلم الحكمة فيه، وفيه دفع ما وقع لبعض الجهال من أن في الحجر الأسود خاصة ترجع إلى ذاته، وفيه بيان السنن بالقول والفعل، وأن الإمام إذا خشي على أحد من فعله فساد اعتقاده أن يبادر إلى بيان الأمر ويوضح ذلك.

قال شيخنا في «شرح الترمذي»: فيه كراهة تقبيل ما لم يرد الشرع بتقبيله، وأما قول الشافعي ومهما قبل من البيت فحسن فلم يرد به الاستحباب؛ لأن المباح من جملة الحسن عند الأصوليين. «تكميل»: اعترض بعض الملحدين على الحديث الماضي فقال: كيف سودته خطايا المشركين ولم تبيضه طاعات أهل التوحيد؟

وأجيب بما قال ابن قتيبة: لو شاء اللَّه لكان ذلك، وإنما أجرى اللَّه العادة بأن السواد يصبغ، ولا ينصبغ على العكس من البياض.

وقال المحب الطبري: في بقائه أسود عبرة لمن له بصيرة، فإن الخطايا إذا أثرت في الحجر الصلد فتأثيرها في القلب أشد.

قال: وروي عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنه إنما غيره بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة، فإن ثبت فهذا هو الجواب.

قلت: أخرجه الحميدي في فضائل مكة بإسناد ضعيف. واللَّه أعلم.

حجوا قبل ألّا تحجوا

السؤال: ما المقصود بقوله ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا»[(١)]؟

الجواب: هذا القول ـ على فرض صحته ـ يعني: أنه إذا تيسرت ظروفك، وكان باستطاعتك الحج في وقت معين في حياتك، فانتهز هذه الفرصة بسرعة، وأد هذا الفرض، فربما يأتي وقت آخر لا تستطيع فيه أن تحج.

وكذلك أيضاً بالنسبة للصلاة، فمطلوب فيها أن تؤدى في أول وقتها وذلك لأنه من الذي يضمن لنا أن نعيش إلى آخر الوقت؟ صحيح أنه لو أبقى اللّه حياتنا إلى آخر الوقت فلا إثم علينا، فالقادر المستطيع الذي لم يحج نقول له: إنك حتى هذا الوقت غير آثم، ولكن إذا توفاك اللّه تكون آثماً.

كذلك الصلاة، إذا مات الفرد قبل أدائها مع حلول وقتها: يكون آثماً لأنه أخَّرَ الأداء عن أول الوقت.

❁ ❁ ❁

(١) روا الحاكم في المستدرك [١/ ٦١٧/ ١٦٤٦] وقال الذهبي: حصين واه ويحيى الحماني ليس بعمدة.

المزدلفة

السؤال: ما معنى المزدلفة؟

الجواب: عندما تمثل الشيطان لإبراهيم رجمه بالحصى سبعاً في المرة الأولى، ثم عاوده مرة أخرى فرجمه سبعاً، وجاءه في الثالثة فرجمه سبعاً، بعدها لم يأت له ثانية، فجرى إبراهيم الخطى مخافة أن يلاحقه، ولذلك سُمي المكان بالمزدلفة، والمزدلف هو المسرع، ويسمى «ذا المجاز» أي أنه اجتاز المزدلفة، ويكون قد عرف المسألة عند عرفة[١].

❁❁❁

(١) والمزدلفة هي: موضع بمكة يُتَقَرَّب إلى الله فيها، وسميت المزدلفة من الازدلاف وهو الاجتماع؛ لاجتماع الناس بها. ا.هـ.

ابتلاء هاجر.. وشعيرة الحج

السؤال: ما موقف السيدة هاجر عندما تركها زوجها وطفلها الرضيع سيدنا إسماعيل؟ وكيف جازاها اللّه على صبرها وابتلائها؟

الجواب: لما كانت عندها حُجة على صدقها في قولها: «إذن لن يضيعنا» ويريد الحق أن ينتهي سعيها سبع مرات بلا نتيجة، وتعود إلى وليدها؛ فتجد الماء عند قدم الوليد، وهكذا صدقت هاجر في يقينها، عندما وثقت أن اللّه لن يضيعها، وأراد اللّه أن يقول لها: نعم لن أضيعك، وليس بسعيك؛ ولكن بقدم طفلك الرضيع؛ يضرب بها الأرض، فينبع منها الماء. وضرب الوليد للأرض بقدمه سبب غير فاعل في العادة، لكن اللّه أراده سبباً حتى يستبقي السببية ولو لم تؤد إلى الغرض في العادة.

وحين وجدت هاجر الماء عند قدم رضيعها أيقنت حقاً أن اللّه لم يضيعها. وظل السعي شعيرة من شعائر الحج والعمرة إلى بيت اللّه الحرام، استدامة لإيمان المرء بالمسبب وعدم إهماله للسبب، وحتى يقبل الإنسان على كل عمل وهو يؤمن بالمسبب. ولذلك يجب أن نفرق بين التوكل والتواكل.

إن التوكل عمل قلب وليس عمل جوارح، والتواكل تعطيل عمل جوارح. ليس في الإسلام تواكل، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل. هكذا كان توكل هاجر، لقد عملت وتوكلت على اللّه، فرزقها اللّه ما تريد بأهون الأسباب، وهي ضربة قدم الوليد للأرض وبقيت تلك المسألة شعيرة من شعائر الحج والعمرة وهي سبعة أشواط بين الصفا والمروة.

وعندما غفل الناس عن عبادة اللّه، ودخلت عبادة الأصنام الجزيرة العربية، أوجدوا على جبل الصفا صنماً أسموه «إسافا» وعلى المروة صنماً أسموه «نائلة». وكانوا يترددون بين إساف ونائلة، لا بين الصفا والمروة، لقد نقلوا العبادة من خالصية التوحيد إلى شائبية الوثنية.

فلما جاء الإسلام أراد اللّه ألا يتوجه المسلمون في صلاتهم إلى البيت الحرام إلا بعد أن يطهر البيت ويجعله خالصاً للّه، فلما ذهب بعض المؤمنين إلى الكعبة تحرجوا أن

يسعوا بين الصفا والمروة؛ لأن «إسافا» و«نائلة» فوق الجبلين، فكأنهم أرادوا أن يقطعوا كل صلتهم بعادات الجاهلية، واستكبر إيمانهم أن يترددوا بين «إساف» و«نائلة» فأنزل اللَّه قوله الحق: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أي لا تتحرجوا من هذا الأمر؛ لأنكم ستسعون بين الصفا والمروة؛ لا بين إساف ونائلة كما كان يفعل المشركون الوثنيون، إذن فالعمل هنا كان بالنية.

لقد كانت نية السعي الأولى عند هاجر هي الإيمان باللَّه والأخذ بالأسباب، لكن الوثنية قلبت قمة الإيمان إلى حضيض الشرك، وكان لا بد أن يستعيد المسلمون نية الإيمان الأولى عند زيارة البيت المحرم بالسعي بين الصفا والمروة، فنحن في الإسلام نخضع لأمر الآمر، قال لنا: «قبلوا الحجر الأسود»، وفي الوقت نفسه أمرنا أن نرجم الحجر الذي يرمز إلى إبليس، هكذا تكون العبرة بالنية، وليس بشكل العمل، وتكون العبرة في إطاعة أمر اللَّه. وكأن الحق بهذه الآية يقول للمؤمنين: إن المشركين عبدوا «إسافا» و«نائلة»، لكن أنتم اطرحوا المسألة من بالكم، واذهبوا إلى الصفا والمروة، فالصفا والمروة من شعائر اللَّه، وليستا من شعائر الوثنية، ولكن ضلال المشركين هو الذي خلع عليهما الوثنية في إساف وفي نائلة. لقد أراد الوثنيون بوضع «إساف» على الصفا و«نائلة» على المروة أن يأخذوا صفة التقديس للأوثان، فلولا أن الصفا والمروة من المقدسات سابقاً لما وضعوا عليهما أحجارهم، ولَمَا جاءوا بأصنامهم ليضعوها على الكعبة، هذا دليل على أن قداسة هذه الأماكن أسبق من أصنامهم، لقد حموا وثنيتهم بوضع «إساف» و«نائلة» على الصفا والمروة.

وبعد أن بين الحق للمؤمنين أن الصفا والمروة من شعائر اللَّه، ينبه على أن المكين ـ ساكن المكان ـ لا ينجس المكان، بدليل أن الإيمان عندما كُتِبَتْ له الغلبة، كسر الأصنام وأزالها من الكعبة وأصبح البيت طاهراً، وعندما كان المؤمنون يتحرجون أن يفعلوا فعلاً من أفعال الجاهلية طمأنهم الحق سبحانه وتعالى، وقال لهم: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾.

وكلمة «صفا» معناها الحجر الأملس، وأصبح كذلك من كثرة الملامسين له على مرّ الزمان، وقيل: إن الصفا منسوبة إلى اصطفاء آدم، وقيل: إن المروة منسوبة إلى المرأة التي هي حواء، لكنه كلام يقال ولا نتوقف عنده كثيراً، لأن علمه لا ينفع وجهله لا يضر، فالمهم بالنسبة لنا أنه مكان ترددت بينه هاجر وهي تطلب الماء لابنها، إن الحق جعل السعي بينهما من شعائر اللَّه، والشعائر هي معالم العبادة،

وتطلق دائماً على المعالم المكانية، ويقال: هذا مطاف، وهذا مسعى، وهذا مرمى الجمرات، وهذا المشعر الحرام.

إن كلمة «المشعر» تعني المكان الذي له عبادة مخصوصة، وبما أن الصفا والمروة مكانان فقد جاء وصفهما بأنهما ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ كأن الحج والعمرة لهما شيء يجعلهما في مقام الفرضية، ولهما شيء آخر يجعلهما في مقام التطوع، فإن أدى المسلم الحج والعمرة مرة يكون قد أدى الفرض، وهذا لا يمنع أن تكرار الحج والعمرة هو تطوع مقبول بإذن الله.

وساعة نقول: «لا جناح عليك أن تفعل كذا» فمعنى ذلك أنك إن فعلت فلا إثم عليك، لكن ليس خطأ في أن تفعل، وليس فرضاً في أن تفعل، وهذا ما جعل بعض الناس يقولون: إن السعي بين الصفا والمروة ليس ركناً من أركان الحج، ونقول لهؤلاء: هذه آية جاءت لسبب، وهو أنهم كانوا يتحرجون من الطواف في مكان يطوف فيه المشركون فقال لهم: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

إن نفي الجناح لا يعني أنك إن لم تفعل يصح، لا، إنه سبحانه يرد على حالة كانوا يتحرجون منها، وقوله تعالى: ﴿يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يستدعي منا وقفة، إن الحاج أو المعتمر يسعى بين الصفا والمروة، فلماذا وصف الحق هذا السعي بـ: ﴿يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟

لكي نعرف ذلك لا بد أن نوضح معنى «طاف» و«جال» و«دار». إنَّ «طاف» تعني: «دار حول الشيء»، فما الدورة التي بين الصفا والمروة حتى يسميها الحق طوافاً؟ إن الدائر حول الدائرة يبدأ من أي نقطة منها كبداية، لتكون تلك النقطة نهاية، فكل طواف حول دائرة تجد فيه أن كل بداية فيها تعتبر نهاية، وكل نهاية تعتبر بداية، وأي حركة من وإلى شيء واحد يصنع دائرة.

وصحيح أن من يسعى بين الصفا والمروة لا يدور، ولكنه سيذهب من الصفا إلى المروة، ثم ينقلب عائداً إلى الصفا، ثم منها إلى المروة، وهكذا يصير الأمر طوافاً، ومثال آخر من حياتنا اليومية، إن الشرطي الذي يطوف لحراسة الشوارع والمنازل بالليل، قد يلف المدينة كلها، ويمكن أن يلف شارعاً واحداً هو مكان حراسته، هذا الدوران في الشارع من أوله إلى آخره عدة مرات يسمى طوافاً بينهما، وهكذا نفهم معنى ﴿يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، أي يمشي بينهما عدة مرات من بداية هي نهاية.

وهكذا نجد أن السعي بين الصفا والمروة هو جزء من شعائر الحج والعمرة.
ونجد أن الفرضية في الحج والعمرة أساس، والتطوع بتكرار الحج والعمرة هو خير.
﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

وهذا القول يقتضي أن نفهم أن الشاكر أصابته نعمة من المشكور.

عرفة وسر التسمية

السؤال: لماذا سميت عرفة بهذا الاسم؟

الجواب: لقد رأى إبراهيم عليه السلام في الرؤيا أنه يذبح ابنه إسماعيل، وهي مسألة شاقة على النفس؛ لأنه ابنه الوحيد ولأنه سيذبحه بيده.

وجلس إبراهيم في هذا المكان يدير فكره ويتروى، ولذلك سمي اليوم الذي قبل عرفة بيوم «التروية».

وفي اليوم التالي تأكد أن الرؤيا حق.. وعرف أنه لا بد أن يذبح ابنه، فسمي المكان الذي عرف فيه حقيقة الرؤيا «عرفة».

أو أن جبريل كان يعلّم إبراهيم عليه السلام مناسك الحج في هذا المكان.. ويقول له عرفت؟ فيرد إبراهيم عرفت.

وقد يكون بمعنى أن الإنسان يعرف فيها سعة رحمة ربه، فيأتي إلى هذا المكان وكل واحد يعرف ذنبه ويستغفر الله في ذل وخضوع.

وعلى كل حال فإن اختلاف المعاني، واختلاف الملابسات التي أدت إلى هذه التسمية بيوم عرفة أو يوم التروية.. لا تعارض بينها، والله تعالى أعلم.

الرحمة في الحرم

السؤال: ما المقصود بقول الرسول الكريم ﷺ: «إن اللَّه يُهبط في الحرم ـ الكعبة ـ مائة وعشرين رحمة؟

الجواب: الحق سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر.. وكل من في الحرم له ثوابه.. ورسول اللَّه ﷺ يقول: «إن اللَّه تعالى ينزل في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ينزل على هذا البيت؛ ستون منها للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»[١].

إنك إذا جلست تنظر إلى الكعبة نزلت عليك الرحمة.. وأنت عندما ترى الكعبة وتنظر إليها تختفي كل همومك ولا يبقى في بالك إلا اللَّه سبحانه وتعالى.. ولو جلست ساعات أمام الكعبة فإن نظرك لا يتحول عنها.. ولا تستطيع أن تنزع نفسك منها، ما دمت جالساً أمامها.. وإذا أردت تفسيراً لذلك فقد لا تصل إليه؛ فإن في النفس البشرية ملكات لا يعرفها إلا اللَّه سبحانه وتعالى.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١١/ ١٥٦/ ١١٤٧٥] عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما.

نرمي حجراً بحجر

السؤال: ما المغزى من رجم الشيطان وهو حجر نرميه بحجر؟ وما علاقة الشيطان بهذا الحجر؟ وهل الشيطان موجود فيه؟

الجواب: بعض العلماء يقولون إن الشياطين تحبس في هذه الأحجار في أيام منى.. ونحن نقول لهم سواء أكان هذا صحيحاً أم غير صحيح.. فإنه اختبار كما قلنا للإيمان في القلب.. فعلّة الأسباب الإيمانية ليست في أن نفهمها.. أو نعرف الحكمة منها.. ولكن علّة الأشياء في أن اللّه سبحانه وتعالى قد أمرنا بها.. إننا نقبّل حجراً ونرجم حجراً.. والسبب في هذا أنك حين ترجم الشيطان لا بد أن تعرف أنه لا يترك قضية إيمانية إلا حاول إفسادها، وقد لاحق الشيطان سيدنا إبراهيم عليه السلام.. وكلّما رَدَّه إبراهيم كان يعاوده مرة ثانية.. ونحن بالرجم نمتثل أمر اللّه أولاً، ونحيي سنة أبينا إبراهيم عليه السلام الذي سمانا مسلمين من قبل وفاءً لمن وفّى.. كما يقول اللّه تبارك وتعالى عنه في كتابه الكريم: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم].

إننا حين نرجم إبليس في الحج يجب أن يكون عزمنا هو ألا نطيعه بعد العودة وأن يكون شعورنا أننا تغلبنا عليه، ويجب أن تستمر هذه الغلبة بعد الحج لأنه رغم دسه ووسوسته ليجعلنا لا نؤمن باللّه.. سبحانه.. آمنا.. ورغم محاولته لأن يجعلنا نشرك باللّه لم نشرك، ثم أتينا إلى الحج فأدينا المناسك وازددنا في الطاعة..

إن الرجم هنا رمز لانتصارنا على الشيطان، وهو يوم لعنة وخسران مبين للشياطين.. والشيطان ملعون من اللّه ومن الملائكة ومن المؤمنين، لعنة اللّه غيب عنا ولكنها موجودة ومستمرة.. ولعنة الملائكة غيب عنا ولكنها موجودة ومستمرة. أما نحن فإننا نعلن لعنتنا للشيطان بطريقة مادية، وهي الرجم في منى، في هذا اليوم يُرى الشيطان في أحقر وأذل حالاته.

إنه يوم الثأر والقصاص من الشيطان الذي وسوس لك، إنه يوم الانتصار على أعدى أعدائك.. ويجب أن يظل عدوك اللدود.. وفي نفس الوقت أخذت الدرس فيما بقي من حياتك.. لا تدعه ولا تعطه الفرصة لكي ينتصرعليك مرة أخرى..

تقبل أوامر اللّه ونواهيه بعشق وارض بقضاء اللّه . . فإن فعلت أغلقت جميع منافذ الشيطان . . فلا يكون له عليك أي سلطان . . فليس أي ابتلاء من اللّه لك يعني أنه غاضب عليك لأنك لا تدري ماذا أخفى اللّه في قضائه . . فلعله ابتلاك به لأنه يريد أن تزداد ثواباً على الطاعة وتزداد أجراً على عدم الوقوع في المعصية أو ليرفع درجاتك واللّه سبحانه يعلم ـ وهو العليم ـ صدق توجهك ورضائك في كل ما تأتي به المقادير ليجزيك عن الصدق والرضا أحسن الجزاء .

زيارة المسجد النبوي

معلوم أن زيارة المسجد النبوي الشريف ليست من نسك الحج، حتى نبين للناس الذين يقولون: «من لم يزر فكأنه لم يحج» إن هذا ليس بحديث نبوي، ولكنه معنى نفسي.

الحاج يقول: كيف أذهب للحج ولا أزور حضرة النبي ﷺ؟! هذه مسألة غير مستساغة، وإن كانت ليست من النسك.

وأنا في رأيي أن اللَّه سبحانه وتعالى قدر لرسوله ﷺ أن يقيم بالمدينة ويقول لأهلها من الأنصار رضي اللَّه تعالى عنهم: «المحيا محياكم والممات مماتكم»، وهذا يعني: سنموت هنا ونحيا هنا، وحتى لا يظن ظان أن هذا الكلام يتعارض مع قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤] قال ﷺ ذلك بعدما قسم الغنائم ولم يعط الأنصار شيئاً، فاشتد على الأنصار، فعل النبي ﷺ فقال لهم: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة وتذهبون أنتم برسول اللَّه سالماً، لو سلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، المحيا محياكم والممات مماتكم»[1].

---

(١) روى ابن حبان في صحيحه [٤٧٦٠] عن عبد اللَّه بن رباح قال: وفدت وفود إلى معاوية في رمضان أنا فيهم وأبو هريرة، وكان بعضنا يصنع للبعض الطعام، وكان أبو هريرة يكثر أن يدعونا على رحله، فقلت: لو صنعت طعاماً ثم دعوتهم إلى رحلي فأمرت بطعام فصنع، ثم لقيت أبا هريرة من العشي فقلت: يا أبا هريرة الدعوة عندي الليلة. فقال: سبقتني. قال: فدعوتهم إلى رحلي إذ قال أبو هريرة: ألا أحاملكم أو أحادثكم إني أحدثكم بحديث من حديثكم يا معشر الأنصار حتى يدرك الطعام فذكر فتح مكة فقال: أقبل رسول اللَّه ﷺ فدخل مكة فبعث الزبير على أحد الجنبتين، وبعث خالد بن الوليد على اليسرى، وبعث أبا عبيدة على الجسر فأخذوا الوادي ورسول اللَّه ﷺ في كتيبته، وقد بعثت قريش أوباشاً لها وأتباعاً لها فقالوا: نقدم هؤلاء وإن كان لهم شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا ما سألوا، فنظر رسول اللَّه ﷺ فرآني فقال: يا أبا هريرة اهتف بالأنصار فلا يأتيني إلا أنصاري، فهتف بهم فجاءوا فأحاطوا برسول اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أما ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم» وضرب بيده اليمنى ممّا يلي الخنصر وسط اليسرى وقال: «احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا».

قوله ﷺ: «المحيا محياكم والممات مماتكم» يعني أن رسول الله ﷺ يعلم بأن الموت سيكون في المدينة، ولكن كيف ذلك والله يقول: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾؟ أقول: خذ كلمة «ما تدري» أي: دراية ذاتية إنما «أن تدري»، يدريها الذي يعرف؛ ولذلك يقولون: فلان لا يعلم الغيب، نقول: هو لا يعلم بذاته، إنما يعلم الغيب من الله، هذا أمر آخر قال تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦] إذن . . فالممنوع أن يعلم الإنسان الغيب بذاته.

وكأن الله اختار لرسوله ﷺ أن يقيم هناك حتى لا تكون زيارته تبعاً لزيارة البيت، بل الذي يذهب للزيارة تكون زيارة مستقلة، ويقطع لها مسافة طويلة أربعمائة وخمسين كيلومتراً.

إذن . . فالذي عنده حب يظل ذاهباً إلى هناك، فإذا ما ذهب إلى هناك، طبعاً معلوم إنه في الحرم المكي له حدود، وأيضاً الحرم المدني له حدود، لا بد أن يفطن إليها حتى لا يقع في مخالفات هناك، فلا يصيد صيداً ولا يهيج صيداً، ومعنى لا يهيجه، أي: ينفره حتى يخرجه خارج الحرم، حيلة لاصطياده.

= قال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل من شاء منهم إلا قتله وما يوجه أحد منهم إلينا شيئاً. فقال أبو سفيان: يا رسول الله أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» فأغلقوا أبوابهم. وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر وطاف بالبيت وفي يده قوس وهو آخذ القوس، وكان إلى جنب البيت صنم كانوا يعبدونه، فجعل النبي ﷺ يطعن في جنبه بالقوس ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فلما قضى طوافه أتى الصفا فعلا حيث ينظر إلى البيت فجعل ﷺ يرفع يده، وجعل يحمد الله ويذكر ما شاء أن يذكره والأنصار تحته. قال بعضهم لبعض: أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، ونزل الوحي على رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة: وكان لا يخفى علينا إذا نزل الوحي ليس أحد منا ينظر إلى رسول الله ﷺ بل يطرق حتى ينقضي الوحي، فلما قضى الوحي قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار قلتم أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قد قلنا ذاك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم. المحيا محياكم والممات مماتكم فأقبلوا يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا ضناً بالله وبرسوله قال: وإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم»[1].

قال أبو حاتم رضي الله تعالى عنه: في هذا الخبر بيان واضح أن فتح مكة كان عنوة لا صلحاً.

---

(١) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحديث رواه مسلم [١٧٨٠/ ٨٤].

ولا يقطع شجره، ولو كان ذا شوك، وهذا من الأدب؛ لأن رسول اللَّه ﷺ حرم المدينة كما حرم إبراهيم الخليل عليه السلام مكة[١].

ورسول اللَّه ﷺ مفوض من ربه أن يشرع، كل رسول استقبل الحكم من اللَّه، وليس له أن يشرع من عنده، إلا رسول اللَّه ﷺ، فإن اللَّه أمنه على أن يشرع لأمته، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: «إبراهيم حرم هناك وأنا حرمت هنا» ونص الحديث على أن التحريم كان «بين لابتيها»[٢].

لابتيها: يعني: الحرَّتين، اللابة: هي الحجارة السوداء، واحدة ناحية الميقات في أبيار علي، وواحدة ناحية سور هذه عير وهذه سور. هذا الحرم.

فليلزم حدود الآداب التي لزمها في حرم مكة، يلزمها في حرم المدينة.

لكن إذا ما دخل المسجد، فيه خلاف عن دخول المسجد الحرام فالمسجد الحرام لأنك قادم لأداء نسك فلا بد من الطواف أولاً، ثم إن تحية المسجد الحرام الطواف. لكن المسجد النبوي لا بد أن تحيي المسجد أولاً بصلاة ركعتين، ثم بعد ذلك تزور حضرة النبي ﷺ، والزيارة تكون بالأدب الخاشع، استحضار عظمته، استحضار مكانته عند الحق سبحانه وتعالى.. وبعد ذلك تسلم عليه؛ لأن تشريع السلام على حضرة النبي ﷺ وعلى صاحبيه رضي اللَّه تعالى عنهما بل وعلى عموم الأموات من المسلمين إيذاناً بإن لهم دراية بالسلام، أو شعوراً بالسلام. وإلا لو لم يكونوا عندهم شعور بالسلام لكان التسليم عليهم عبث، فهم في حياة لا نعلم كنهها، ولكنا أخبرنا عنها.

فعندما نقول مثلاً: «السلام عليكم ديار قوم مؤمنين، أنتم السابقون وإنا إن شاء اللَّه بكم للاحقون»[٣]. فلو لم يكن للسلام عندهم استقبال انفعالي، لكان التسليم عبثاً. وحاشا للَّه أن يشرع رسول اللَّه ﷺ عبثاً.

---

(١) روى مسلم [١٣٦٠/ ٤٥٤] عن عبد اللَّه بن زيد بن عاصم رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة». وهو في البخاري ومسلم في أكثر من موضع بألفاظ متقاربة.

(٢) روى البخاري [٤٠٨٤] عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ طلع له أُحُدٌ فقال: «هذا جبلٌ يحبنا ونحبه اللَّهم إن إبراهيم حَرَّم مكة، وإني حَرَّمتُ ما بين لابتيها». ومسلم [١٣٦٥/ ٤٦٢] والترمذي [٣٩٢٢].

(٣) روى مسلم [٩٧٤/ ١٠٢] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ كلما كانت ليلتها من رسول اللَّه ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: «السلام عليكم دار =

وهذا هو رسول اللَّه ﷺ في أول غزوة غزاها في بدر، وقف على بئر ألقى فيه بقتلى المشركين «القليب» وقال: يا فلان، يا فلان، يا عتبة يا شيبة يا. . . ، فقال له الصحابة: أتكلمهم وقد جيفوا ـ يعني: أصبحوا جيفاً ـ قال: «ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يجيبون»(١).

الناس تفهم أن السماع لا يكون إلا بالأذن؛ وأن الرؤية لا تكون إلا بالعين، وتكون حياتهم كحياتنا!! لا. . لكل حياة قانون، فحياتك هنا لها قانون، وحياتك بعد موتك لها قانون.

وضربنا لذلك المثل فقلنا: «الحي له قانونين: قانون يقظة وقانون نوم، قانونه في النوم أشف وأخف من قانونه في اليقظة، يقول لك: أنا رأيت في الرؤية فلان لابس أبيض في أبيض وراكب حصان شكله كذا وصفته كذا، وقال لي كذا.

كيف رأيت هذا وأنت نائم عينيك مغمضة؟!

إذن. . فقد رأيت بغير عين وسمعت بغير أذن، وأدركت بغير وسيلة إدراك. فهذا دليل على أن النوم له قانون. وما دام النوم له قانون فالموت أيضاً له قانون ليس كقانون الحياة. وما دام الموت له قانون أشف من قانون النوم، والنوم له قانون أشف من قانون اليقظة، إذن. . فالبعث له قانون أشف من قوانين الجميع.

إذن. . فخذ كل شيء بقوانينه، وسلم على حضرة النبي ﷺ بالسلام الذي يلهمك اللَّه به، ولكن بأدب، بخشوع، لا ترفع صوتك عند رسول اللَّه ﷺ، ولا بد أن تلحظ أن رسول اللَّه ﷺ لا يسره منك أن تضعه في موضع أعلى من موضعه الذي وضعه اللَّه تعالى فيه، فإياك أن تغالي فيه كما غالت بعض الأمم الأخرى في أنبيائهم؛ لأن هذا لا يرضي حضرة النبي عليه الصلاة والسلام لكن تكلم عنده بأدب، سلم عليه كأن تقول:

السلام عليك يا رسول اللَّه، يا رحمة اللَّه للعالمين، يا خاتم الأنبياء والمرسلين، يا كذا يا كذا، قل ما شئت من مكارم أخلاقه، وما وصفه به رب العالمين في القرآن الكريم، أو صل عليه الصلاة التي اعتدت دائماً أن تصليها عليه في الصلاة، في التشهد وهي الصلاة الإبراهيمية.

= قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون، وإنا إن شاء اللَّه بكم لاحقون».
والنسائي [١٥٠] وأبو داود [٣٢٣٧] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه. وصححه الألباني.

(١) رواه البخاري [١٣٧٠] ومسلم [٢٦/٩٣٢] عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما، وأحمد في المسند [٣/ ٢٨٧] عن أنس رضي اللَّه تعالى عنه.

وبعد ذلك تسلم أيضاً على صاحبيه: سيدنا أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه، وسيدنا عمر بن الخطّاب رضي اللّه تعالى عنه، وتسلم عليه بلاغاً بسلام حُملت به من أحد الأهل أو الأقرباء والأصدقاء، فإذا قيل لك حين تذهب إلى المدينة المنورة سلم على رسول اللّه، فيمكنك مثلاً أن تقول: السلام عليك يا سيدي يا رسول اللّه عني وعن فلان الذي كذا وكذا وعن كذا..

وبعد ذلك صلِّ ركعتين في الروضة الشريفة وهي بين المقام والمنبر، ثم تسأل اللّه تعالى ما تشاء[١].

واعلم أنك ساعة أن تقف أمام رسول اللّه ﷺ ليس معناه أنك ستحضر نفسك لتقول؛ لأن هذا موقف أبلغ البلغاء حيث يقفه يكون أبكم، لا يدري ما يقول، ولا يجد إلا أن يقول صلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.. اضطرب، لماذا؟

لأن المقام حين يهول الإنسان يقول: إن أساليبي لا تنهض بأن توفى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام حقه، ويقول: ماذا أقول للنبي عليه الصلاة والسلام؟ فتقول لهذا: قل له كما علمك اللّه، وصل عليه، وصل عليه بتسليم، وصل على آله، وصل على إخوانه من الأنبياء، وقف أمامه بأدب وبخشوع واستحضر مكانته عند ربه ومكانته عند الرسل، وبعد ذلك فالذي يلهمك اللّه به قله.

الإنسان منا في المسائل التي مثل هذه لا يقدر أن يحضر للموقف. ولكن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي يكيف الفهم ويطلق الألسنة إلا أن الإنسان مطلوب منه الانضباط الأدبي مع سيدنا رسول اللّه ﷺ. فإذا انضبطت الانضباط الأدبي فمن العسير على من تحب أن تمشي وتتركه، ولذلك فإنك تضع الصيغ التي تنصرف عن رسول اللّه ﷺ بأدب المحبين؛ أدب المحبين ـ مثلاً ـ كما علمنا العارفون: «اللّهم أسألك أن تصلي وتسلم عليه وعلى آله، وضاعف اللّهم محبتنا فيه وعرفنا بحقه وقدره، ووفقنا لاتباعه والقيام بآدابه وسنته، واجعل صلاتنا عليه نوراً فائضاً ماحياً عنا كل ظلمة وظلم، وكل شك وشرك وإفك وغفلة، واجعلها سبباً للوصول حتى لا تبقى فينا ربانية لغيرك، وحتى نصلح لحضرتك، ونكون من أهل خصوصيتك متمسكين من آدابه ﷺ بالحبل المتين، مستمدين منك يا ربنا ومن حضرتك العلية كل توفيق في أمور الدنيا وفي أمور الدين».

فإذا ما أردت أن تنصرف عن رسول اللّه ﷺ وصاحبيه، فتعلم أدب الانصراف

---

(١) روى البخاري [١١٩٦] عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، ومسلم [١٣٩١/ ٥٠٢] والترمذي [٣٩١٦].

من سيدنا الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه، حين وقف وقال: «السلام عليك يا سيدي يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك... إلى أن قال: والسلام عليكم، سلام مودعٍ لا قال ولا سئم، فإن ننصرف فلا عن ملالة، وإن نقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين».

قبل الله حج من حج، ويسر وأعان بمنته ورحمته من لم تمكنه الاستطاعة من الحج إلى أن يحج، والمؤمن غير الحاج يستطيع أن يجعل تقبلاته لفيوضات الحق على أهل الحجيج أن تهب عليه؛ لأن أجهزة الاستقبال الإيمانية، تستطيع إن صفت واستحضرت مواقف الحجيج عند الله، أن يهب عليها من الرحمات ما عند الله.

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

ألم يقل رسول الله ﷺ وهو في المدينة أثناء غزوة مؤتة، ومؤتة بعيدة جداً: «أخذ الراية فلان فقاتل وقتل، وأخذ الراية فلان فقاتل وقتل» من الذي أعلمه؟ إنها هبات الصفاء في الإرسال من هناك، وفي الاستقبال من هنا.

وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه أيضاً حين قال: «يا سارية الجبل» فإن الإرسال من هناك والاستقبال من هنا إذا صحت آلة الاستقبال لا يغيب عنك شيء من رحمات الله تعالى ولا من فضله.

أسأل الله سبحانه وتعالى للحاجين أن يعودوا، ولغير المستطيعين أن يستطيعوا، وأسأل الله سبحانه وتعالى لجميع المؤمنين والمؤمنات في جميع بقاع الأرض صلاح الحال.